الخطاب الديني المتلفز وسياق الإنتاج الهوياتي لدى المرأة: من التمثل إلى الفعل.

Televised Religious Discourse and the Context of Women's Identity Production: from Representation to Action

الزهرة جير[1،*]، غماري طيبي[2]

[1] جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر (الجزائر) ، z.djir@univ-mascara.dz

[2] جامعة بلحاج بوشعيب- عين تموشنت (الجزائر)، ghomaritaibi@gmail.com

تاريخ الاستلام:08-03-2022 تاريخ القبول: 19-04-2022 تاريخ النشر: 03-06-2022

ملخص: تهدف الدراسة الحالية إلى الكشف عن رهانات الخطاب الديني التلفزيوني واستراتيجياته في خلق وتشكيل الهوية الدينية للمرأة الجزائرية، وفي هذا السياق، انطلقت الدراسة من تساؤل يبحث عن مدى فعالية الخطاب الديني المتلفز في تشكيل استجابات هوياتية لدى المرأة وعن آليات تفاعل السجل الإيماني التقليدي مع السجل الإيماني الحداثي لديها. ركزت الدراسة على عينة قصدية مكونة من إثنتا عشر (12) مفردة من مدينة معسكر لإجراء المقابلة، وتم استخدام المنهج الفهمي التحليلي، وقد خلصت الدراسة أن المرأة المحلية تعيش تفاوضا استراتيجيا بين السجلين الإيمانيين التقليدي والحداثي عن طريق عملية الذهاب والإياب بينهما تمثلا وممارسة، وتعيش في نفس الوقت تارة وعيا زائفا وتارة أخرى وعيا قلقا، حيث أن العديد من ممارساتها وسلوكياتها الاجتماعية اليومية تعكس واقعا متمايزا يصل أحيانا إلى حد التناقض وأحيانا أخرى إلى التعدد.

الكلمات المفتاحية: خطاب؛ تلفزيون؛ المرأة؛ هوية دينية؛ قيم.

Abstract: The present research study aims to investigate the issues of the television religious discourse and the used strategies to create and shape the religious identity of Algerian women. In this context, we started our study from the problematic that questions the effectiveness of televised religious discourse in shaping women's identity responses, and the mechanisms of interaction of her traditional faith with modern faith registers. Accordingly, the worked on an intentional sample consisting of twelve (12) case studies from the city of Mascara to conduct the interviews, relying on the scientific-analytical approach. The study concluded that local woman experience a strategic negotiation between the traditional and modern faith registers through the process of going back and forth between them in representation and action. They also witness a kind of false an anxious awareness in different times, as many of her daily social practices and behaviors reflect a distinct reality that sometimes reaches the level of contradiction and plurality.

Keywords: Discourse; Television; Woman; Religious Identity; Values

[*] المؤلف المراسل.

1- مقدمة

كثيرة هي الكتابات التي تؤشر اليوم إلى مرحلة جديدة من التعاطي العلمي مع قضايا واهتمامات الخطاب الديني الإعلامي في المجتمعات العربية، وعديدة هي القراءات والمقاربات التي وظفها الباحثون في ميادين وحقول معرفية متنوعة خاصة، وهي تبدو متباعدة بالرغم من اشتغالها على الخطاب الديني المُتلفز وقضايا التغير الاجتماعي، الذي يهم بدرجات متفاوتة المرأة الجزائرية عموما والمعسكرية على وجه الخصوص. وهذا ما يجعلنا نفكر بشكل جدي في رصد بعض جوانب التحول الاجتماعي الذي غير بشكل أو بآخر موقعها ومسارات تشكل الهوية الدينية لديها، مما انعكس على تمثلاتها وممارساتها وكذا تغير منظومة القيم الدينية المألوفة التي ورثها جيل الأبناء عن جيل الآباء.

إن الخطاب الديني المتُلفز أو ما أصبح يصطلح على تسميته في بعض الدراسات الإعلامية موسطة* الدين بواسطة التلفزيون والتي تعد ظاهرة اجتماعية بامتياز، بحيث يمكننا بناءها وإعادة تنظيمها كمجال خصب للدراسة والبحث والتفكيك السوسيولوجي الذي يتعلق بمختلف أبعاد هذه الظاهرة ومؤشراتها، خاصة إذا ما صاحب هذه الموسطة استجابات وردات فعل تعبر عن واقع متمايز للفاعلين الاجتماعيين، لذلك ينبغي علينا مساءلة عدة تخصصات علمية كـ(علم الاجتماع وعلم الإعلام وعلم النفس....) وذلك لمقاربة حيثيات بناء الهوية التي تتخذ من الدين محورا أساسيا لها،ومعرفة خلفياتها ومآلات توظيفها في الفعل لدى جمهور النسوة المتابعين للخطاب الديني المُتلفز. الأمر الذي يستدعي منا الوقوف عند مختلف تجليات وتمظهرات هذا الخطاب ضمن الإيقاع اليومي لحياة النسوة بصفتهن فاعلات سواء من حيث تصوراتهن وتمثلاتهن له، أو من حيث مستوى وعيهن العام وسلوكهن الذي يخلق نوعا من الانتماء الهوياتي الديني لديهن.

ضمن هذا الإطار تأتي إشكاليتنا لتبحث عن مدى فعالية الخطاب الديني المتلفز في خلق وتشكيل استراتيجيات هوياتية لدى المرأة الجزائرية. وقد افترضنا أن الخطاب الديني المتلفز يساهم بقدر كبير في تشكيل الهوية الدينية للمرأة من خلال تكوين معرفي لها ووعي ديني يؤثر في سلوكياتها ونمط حياتها وتجليات ممارساتها الدينية اليومية.

2 – مفاهيم الدراسة

1.2- الخطاب الديني المُتلفز:

يقصد به "التوجه بالكلام المسموع، والمرئي، والمقروء في الإذاعة، والتلفزيون، والصحافة المكتوبة. ويقصد بالديني هنا ما كان متعلقا بالدين الإسلام خاصة" (اليحياوي، 2016، 94) أما الخطاب الديني كمفهوم

* الموسطة التلفزيونية للدين La médiatisation de la religion يمكننا أن نقول عنها وبعيدا عن مفهومي الوسيط والوساطة اللذين يشترطان طرفين في عملية الاتصال، بأنها مفهوم شائع في علوم الإعلام والاتصال وتعني جعل التلفزيون قناة تربط الفقيه الفضائي بالجمهور المتلقي لأجل فهم واستيعاب مضامين وأبعاد الخطاب الديني الذي يفرز واقعا اجتماعيا متمايزا للفاعلين.

إجرائي في دراستنا هاته، فهو الكلام في الدين، المسموع والمرئي، أو هما معا، والصورة المرئية، والرسالة المبثوثة على شاشة التلفزيون.

كما أنه يشير إلى كل خطاب يطغى على مضامينه المحتوى الديني بتوجهيه الدنيوي والأخروي، إرشادا ودعوة، تفسيرا وشرحا للعقيدة، واجتهادا، لتقديم فتاوى حول مواضيع مختلفة، يتساءل عنها الجمهور المتلق، ويتصل بصفة مباشرة مع الشيخ الذي يمارس فعلا خطابيا.

2.2- الهوية الدينية للمرأة:

ينبغي القول أن دراسات الأنثروبولوجيا قد أظهرت الطابع الديناميكي والتفاعلي للهوية، وهو ما جعل منها أحد أبرز المواضيع التي استقطبت اهتمام الباحثين السوسيولوجيين الذين ينظرون إلى الهوية باعتبارها "حصيلة مجموعة من الأنساق والعلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد تقييمه لذاته، ويضع على ضوئها نظاما لتشكيل هويته وتحديد لماهيته داخل الوسط السوسيو. ثقافي"(السباعي، 2007، 258). إنها بذلك تعد بنية معرفية ترتبط ارتباطا كليا بالجانب الفكري التمثلي، من خلال تجسد رؤى الأفراد لذواتهم من جهة، وتصوراتهم لجماعات الانتماء من جهة أخرى.

ويمثل الدين أحد أهم مصادر بناء الهوية التي يبحث عنها الفاعلون الاجتماعيون باستمرار ويسعون لتجسيد هذا الانتماء وتجديده والتعبير عنه تمثلا وفعلا، كون "الدين في الأصل واحد لكن التديّن، أي طريقة تبني ذلك الدين وإتباعه وتأويل نصوصه وتطبيقه يختلف، وقد اختلف بالفعل عبر التاريخ وعبر الجغرافيا" (الشرفي، 2014، 87). فمسألة النقاش حول الهوية تتركز على نقطة مهمة وأساسية، ألا وهي الدين كونه "رابطة روحية قوية تؤطر وجود الجماعة، مزودة إياها بمعان روحية للحياة وللعالم وللتاريخ" (سبيلا، 2010، 63)

بما أننا في محاولة للبحث والتقصي عن تأثيرات الخطاب الديني المتلفز على الهوية، فإننا ننوه إلى أننا سنركز الحديث على شخصية الفاعلين المتلقين (المرأة) لهذا الخطاب، باعتبار أن هذه الهوية الدينية تعني الدافع الإيماني الذاتي والمنبه الداخلي الذي يوجه المؤمنين بمختلف فئاتهم، إلى اكتساب معارف أو ثقافة دينية إضافة إلى القيم الدينية وترجمتها إلى جملة من السلوكيات الدينية ضمن تفاعلاتهم اليومية.

3 – الدراسة الميدانية:

لقد قمنا بغرض التأكد من الفرضية المقترحة بدراسة ميدانية تم خلالها مساءلة مجموعة من النساء من ولاية معسكر خلال سنتي 2019– 2020، حيث بلغ عدد المبحوثات اللواتي تم استجوابهن إثنتا عشر (12) مبحوثة تتراوح أعمارهن بين 22 سنة و84 سنة، وكن يتكلمن بالدارجة العامية كونهن يستطعن تقديم تفاصيل عن تحولات الخطاب الديني الذي شهده العالم العربي، خاصة مع تنامي الفضائيات الدينية وكثرتها محليا وعالميا، وتمثلاتهن لهذا الخطاب في نفس الوقت. "فالباحث من خلال دليل المقابلة يلعب دور المحدث والمستمع وربما المذكر لأن كل التركيز هنا يذهب إلى أقوال المبحوث" (Bourdieu, 2000, 76–77). وبعد إجراء المقابلات وتفريغها، تمكنّا من جمع كم هائل من المعطيات حاولنا تلخيصها من خلال النتائج التالية:

4- اتجاهات المرأة نحو مشاهدة البرامج الدينية:

يرتبط حديث المرأة عن الدين والتدين في غالب الأحيان بثنائيات: المقدس/ المدنس، الحلال/الحرام.... وغيرهما، هذا وقد تزامن ظهور الفضائيات واختلاف برامجها مع بروز فعل التدين كظاهرة اجتماعية بامتياز لما لها من انعكاسات على المستوى الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والاقتصادي.... باعتبار أن الموسطة التلفزيونية للدين تعتبر موجها هاما لأنماط وأشكال التدين الحديثة.

لا يأتي الاهتمام بالبرامج الدينية وبالخطاب الديني المتلفز من العدم، بل على العكس من ذلك، فالمرأة لديها استعدادات مسبقة، وهذه الاستعدادات نلمسها في تصريحاتها حول أهمية الدين وأهمية المسائل الدينية في الحياة اليومية المعاشة، إذ تصرح المبحوثة رقم 02 قائلة " الحصص الدينية لي نتفرجهم متأثرة بيهم بزاف، علاش، لأجدد إيماني في قلبي....لأن المشايخة يعطونا رسالات رب العالمين، وراهم يوصلونا فيها بطريقة مبسطة" وفي ذلك تعبير على أن الخطاب الديني المتلفز إنما يضيف رصيدا معرفيا خالصا تسعى من خلاله المرأة بصفتها متلقية للخطاب لبناء علاقة مع الله في إطار تجديد الاعتقاد والإيمان بالله عزوجل، وفي ذلك تأكيد على أن "الدين قائم بمعنى عقلاني، والإيمان وسيلة للإنجاز وتحقيق الذات الفردية، وهو يظفي على الحياة المعقدة قيمة ومعنى" (زايد، 2017، 43) وبالتالي فالتوجهات والاستعدادات نحو الدين ضمن السياق الثقافي والاجتماعي الذي يحيط بالمتلقين هو الذي يشكل الوسط الديني الذي يعيشون فيه، وهو ما يتم التفاعل من خلاله مع ما يتم تلقيه من الخطاب في حد ذاته.

انطلاقا من مركزية وحضور المرأة في الخطاب الديني الخاص ببرنامج " فاسألوا أهل الذكر" ضمن قناة الشروق tv تصرح المبحوثة رقم 01 في هذا الشأن قائلة "حنا النسا كي نتفرجوا حاجة تاع الدين، parce que عندنا تقريبا بزاف أمور تاع الفقه ماراناش متمكنين منهم donc automatiquement tu aime bien كي شغل نتعرفوا على الدين تاعنا، كيفاش نتعاملوا، شاهما المناسك لي نديروهم، العبادات كيفاش يكونوا، إذا كاين نقائص نحوسوا نصححوهم..." هذا القول إنما يحيلنا إلى أن الفضائيات الدينية عموما والخطاب الديني المتلفز خصوصا إنما يساهم في عمليات التأطير والتوجيه الديني، من خلال إنتاج أنماط وأشكال من المعلومات الدينية التيولوجية التي تتماشى ومتطلبات السوق الاستهلاكية التي تمكن المرأة من إشباع معارفها الدينية. وهو ما أكدته عديد الدراسات من حيث أن مصادر المعلومات الدينية ومختلف المرجعيات التثقيفية للمرأة يعود الفضل فيها وبدرجة كبيرة إلى الإقبال الكبير على متابعة البرامج الدينية خاصة إذا كان المستوى التعليمي للمرأة ضعيف ومحدود.

وفي ذات السياق تشير الحالتين رقم 02 و08 على أن توجهاتهما لمشاهدة البرامج الدينية وما تتضمنه من خطابات إنما أتى كنتيجة حتمية لظهور بعض الأمراض الاجتماعية التي نتجت جراء البعد عن الدين، حيث تصرح المبحوثة رقم 02 قائلة "الحاجة لي خلاتني نرجع للدين ونتابع البرامج الدينية ولّي شكلي وازع ديني قوي كثرة الفتن...كي تشوفي السحر لي هو مرض العصر ...كارثة، يأذي بأبخس ثمن، راه واقع بزاف بزاف" إن هذا التوجه نابع من الرغبة في تكريس العقيدة وتعميق الفهم للدين في زمن ظهور الفتن والفساد الأخلاقي وانتشار السحر والشعوذة في الأوساط الاجتماعية، وبذلك يظهر لنا الدور الكبير الذي يوليه الوازع الديني من أجل مشاهدة

البرامج الدينية، وبالتالي فهو محدد لمشاهدة البرامج والخطب الدينية المتلفزة. لذلك يمكننا القول بأن حديث النسوة عن مشاهدة الخطاب الديني المُتلفزْ يخضع إلى مستويين اثنين:

يتمثل المستوى الأول في "الأنا الأعلى" الذي يرغمهن على تبني المواقف التي ترضي المجتمع، ويتمثل المستوى الثاني في "الأنا الفردي "الذي تمارسنه من خلال طرق لا يراد لها أن تتكشف وتتجلى للعيان أمام نظيراتهن ضمن العائلة وفي الحي الذي تسكن فيه، فتتجلى ممارساتهن هاته في استخدام مقولات حول السحر والتماس الأيادي البيضاء وفي زيارة الأضرحة والتبرك.

لا تعني هاته الجمل بالضرورة أن إحداهن ترتكبن الكبائر وأخريات هن بعيدات كل البعد عن ذلك، أو أن إحداهن مؤمنة ببركة الأولياء والباقيات لا ينطبق عليهن ذلك، إنهن تعبرن عن تناقض وصراع هوياتي فيما بينهن، حيث تقول المبحوثة رقم 06 "أنا مانروحش عند القزانات" وكأن هذه المقولة تضفي نوعا من الهيبة والوقار التي تجلب لها الاحترام من طرف بيئتها الاجتماعية ونوعا من الالتزام الديني اتجاه الله، أما قولها "هي تحل الطالع وتضرب الخفيف... وتقلع العين" فهذا التصريح يسمح لها بموقعة نفسها لخلق التمايز ضمن جدلية المقدس والمدنس.

تقوم المرأة إذن باكتساب الثقافة الدينية من خلال ما يعرض عليها في البرامج الدينية المحلية وحتى العالمية التي تدفعها باستمرار لتنزيه ممارساتها اليومية دون غيرها وهذا ما يؤكده لنا نصير بوعلي (1993) في أن ميول المرأة نحو مشاهدة البرامج الاجتماعية والدينية يعود لكونها ميالة بطبعها النفسي إلى المواضيع التي تعالج الأسرة والمجتمع، ويقع هذا تحت وطأة التقسيم الاجتماعي للأدوار المنوطة بها كإنسان في مراحل التنشئة الأولى، بحيث يراد لها دائما أن تكون أكثر عاطفية وأكثر حساسية.

فالمرأة تثبت ذاتها من خلال اكتساب الخبرة والمعرفة الدينية التي تستمدها عند مشاهدة البرامج الدينية، وهي في نفس الوقت فرصة لتبدي تجربتها من خلال ما يجمعها من حوارات ونقاشات مباشرة مع قريناتها، لأن الحديث عن هيمنة المعنى لدى المرأة المتدينة يرتبط بشكل كبير بالبرامج والخطابات الدينية عموما وبمختلف الاستعدادات الذاتية على وجه التحديد ، بحيث عبرت النسوة المستجوبات عن انجذابهن نحو البرامج الدينية، كما أن استعداداتهن المسبقة هي من يتحكم في الأسلوب الذي سيتعاملون به مع الخطاب، "إننا نجدهم يضعن أنفسهن بالتالي طواعية تحت سلطة المقال او المرسل بفضل الثقة التي يعلقونها على هذا النص" (مجاهدي، 2011، 155)

يمكننا القول أن الخطاب الديني المتلفز ومن ورائه التلفزيون بصفة عامة لا يزال يفرض نفسه على المشاهدين ويفرض هيمنته وعنفه الرمزي في مجال خلق الاستعدادات والتوجهات من جهة وفي مجال البناء المعرفي من جهة ثانية (وهو ما سنتطرق له في العنصر الموالي) بحيث يصوغ معلومات دينية تتلاءم وسوق الطلب/ العرض الاستهلاكي وتعيد إنتاج أنماط معينة من طرق التمثل والتفكير .

5- الخطاب الديني المتلفز وبناء الهوية الدينية للمرأة:

بما أننا في محاولة للبحث والتقصي عن تأثيرات الخطاب الديني المتلفز على الهوية، فإننا ننوه إلى أننا سنركز الحديث على شخصية المرأة كفاعلة متلقية لهذا الخطاب، باعتبار أن هذه(الهوية الدينية) تعني الدافع

الإيماني الذاتي والمنبه الداخلي الذي يوجه المؤمنين بمختلف فئاتهم إلى اكتساب معارف أو ثقافة دينية وجملة من القيم وترجمتها إلى سلوكيات دينية ضمن تفاعلاتها اليومية.

ويذهب ستيفن فروش Stephen Frosh إلى اعتبار الهوية إفراز من الثقافات أو محصلة لها، ولكنها لا تتكون منها بتلك البساطة، فهو يؤكد على أن هوية الفرد هي في الحقيقة متعددة وربما سائلة على حد تعبير باومانZygmunt Bauman، "حيث أنها تتكون عبر التجربة وتترسخ برموز لغوية، والأفراد حين يطورون هوياتهم إنما ينجذبون إلى المعطيات الثقافية الموجودة على الشبكة الاجتماعية المباشرة لهم وتلك الموجودة في المجتمع ككل"(هرلمبس، 2010، 15)، وتبعا لذلك تصبح عملية بناء الهوية عملية معقدة ومتباينة من حيث أنها تعبر عن نوع من الأمزجة والتكوين بين ما هو شخصي وما هو ثقافي واجتماعي.

وعليه، سنحاول البحث عن مسألة بناء وتشكل الهوية الدينية لدى المرأة الجزائرية (المعسكرية على وجه التحديد) من خلال رصد تمثلاتها لما تتعرض له من مضامين خطابية وطرق انعكاس هذه المضامين على ثقافتها الدينية وأنساق القيم المتبناة ومدى انعكاسها على ممارساتها وسلوكياتها الدينية.

1.5- الثقافة الدينية كأساس للبناء الهوياتي :

تعبر الثقافة الدينية عن نسق المعتقدات الدينية التي تعتبر حاجة ملّحة وركيزة أساسية في ثقافة الأفراد والمجتمع، وهي بذلك جملة الأفكار التي تنشأ إثر حيثيات وأوضاع معينة تساهم بطريقة أو بأخرى في تفاعلات المجتمع وفي ترسيخ البيئة التربوية، وتعمل هذه الثقافة بمعية الدين في إنتاجهما عبر صيرورة زمنية معينة على تحويل مجال الممارسة فيما بعد إلى حقيقة مطلقة لا جدال ولا نقاش فيها، كما أن المساس بها يعتبر انتهاكا لحرمة من يؤمن بمسلماتها خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمجال الديني، فهي تعطي بذلك "للخبرة الدينية شكلها المعقول الذي يعمل على ضبط وتقنين أقوالها"(السواح، 2002، 49).

أما استعمالنا لمفهوم المعتقدات الدينية كجزء ضمن الكل المتمثل في الثقافة الدينية العامة فهو للتعبير بالضرورة عن كونه شكلا من أشكال الوعي الديني والثقافة الدينية التي يعاد إنتاجها وفق خبرات أجيال متلاحقة، ويعبر هذا الشكل عن واقع الثقافة الدينية للمرأة المتجسد في إقبالها أولا على مشاهدة ومتابعة هذا الخطاب ومدى الامتثال لتجلياته على أرض الواقع عن طريق ممارساتها الدينية اليومية. بمعنى أن الثقافة الدينية في آخر الأمر ما هي إلا تلك التصورات الذهنية (التمثلات) التي ترسمها المرأة بصفتها فاعلا اجتماعيا حول الدين، أي أنها ترجمة وانعكاس لما تقوم به، ويؤكد ذلك لنا درجة استيعابها ومعرفتها لتعاليم الدين والشريعة الإسلامية.

أصبحت الثقافة اليوم تمثل قوة وسلطة تتنوع وتتشكل باستمرار مشكلة بذلك عالما من معاني الحياة، إنها "حولنا في كل مكان، بل إنها فينا، تعيد تشكيل هويتنا أو على الأقل تساهم بشكل رئيسي في إضفاء المعنى على الأشياء المحيطة بنا" (دلة، 2018، 312)، لتشير بذلك إلى كونها أسلوبا كاملا في الحياة على حد تعبير رالف لينتون R. Linton، حيث تشتمل على الوعي والممارسة التي تتبنى أساسا على النسق ألقيمي التقليدي وكذا النسق الحداثي الذي بمقتضاه يتكيف الفاعلون مع مستجدات المعرفة والثقافة الدينية، وفي ذلك أشارت المبحوثة رقم 02 إلى أن "الوعي الديني كي يغيب في الأسرة ما تقارعيش حاجة زينة من الأسرة وما تقارعيش من المجتمع، عندما تنعدم الثقافة الدينية في الأسرة لا ننتظر أي شيء"، إن هذه الثقافة وجملة المعارف الدينية التي تتلقاها المرأة من السجل الإيماني القداسي التقليدي (المنبني والمترسخ وفق عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية) والسجل

الإيماني القداسي الحداثي (المستنبط والمستوحى من الخطاب الديني المتلفز) تتكون ذاتيا، وتعتبر حسب تمثلاتهم متجانسة وتعكس مباشرة حياة وتجارب الأفراد....، وبالتالي لا يمكن التنازل عن السجل الديني التقليدي الذي يمثل القاعدة الأساسية والمركزية التي تبنى عليها الثقافة الدينية نتيجة عملية التنشئة الاجتماعية والتربية ضمن عملية تعاقب المؤسسات التنشيئية التي توظف جل إمكاناتها وطاقاتها في عمليتي التلقين والتعليم، وتبنى أيضا بين طيات السجل الديني الحداثي الذي يعتبر أحد أهم المرجعيات الحديثة التي تتسم بها مجتمعاتنا المعاصرة والتي تتميز بالتعقيد والديناميكية في نفس الوقت، لتجد بذلك المرأة نفسها في عملية ذهاب وإياب ضمن عمليات تفاوضية تسعى من خلالها لخلق نوع من التجانس بين السجلين من خلال المحافظة على الإرث الديني الذي ورثته من جيل الآباء وترسخ عن طريق عملية التنشئة في مختلف المحطات الحياتية (الدين الشعبي)، وتبرز أيضا في عدم التفريط في المكتسبات الدينية المستحدثة التي تعرضها السوق الدينية والفتاوى الفضائية، إنها بذلك تنتج هوية متمايزة تنتمي لكلا السجلين.

وهنا ينبغي الإشارة إلى نقطة مهمة في هذا السياق، وهي أن الثقافة الدينية للمرأة التي تنتمي إلى السجل التقليدي تُقبَل وتُحتَرم وتُمارَس كثقافة دينية أصيلة في مقابل الثقافة الدينية المفتعلة التي تنتمي للسجل الحداثي، إلا أن ما يميز الأولى عن الثانية أنها انتشرت بكونها نتاج التنشئة الاجتماعية والتجارب الحياتية والعرف الاجتماعي، وبالتالي فهي ثقافة يصنعها الناس العاديون، في حين الثقافة المفتعلة (المستوحاة من الخطاب الديني المتلفز والتي تصدر عن النخب الدينية وكهنة التلفزيون على حد تعبير بورديو) إنما تعبر عن حالة استهلاك من طرف النسوة وفق ما ورد على لسان المبحوثة رقم 09 "نعمر قفتي بلا ما نشقى" هذا وتقول المبحوثة رقم 02 " كي نتبع الدكتور النابلسي نعرف روحي بلي راني في درجة رقي ثقافي ديني...ولكن أنا أحب معالجة موضوع ما من خلال ثلاث آراء، ثلاث مشايخة ونجمع آراءهم ونستخلص الشيء اللّي نبحث عليه"، بناءا على هذه النظرة تصبح المرأة المتلقية والمستهلكة للخطاب الديني لا تستطيع التفكير من تلقاء نفسها لأنها اعتادت عليها جاهزة دون عناء البحث، والتنقيب، والتنقل والتجريب.

طبقا لهذا الوضع، يمكن القول أن المرأة المحلية تنشط في خلق هوياتها الخاصة، حيث لم تعد الهوية تختزل فقط في السجل القداسي الحداثي ولا في السجل القداسي التقليدي الذي تنتسب له، فالمرأة بهذا الشكل أصبح لديها العديد من الاختيارات بشأن التوجه الذي ستسلكه والثقافة الدينية التي تقتنيها وفق ما يخدم مصالحها والسلوك الذي ستتخذه معيارا يعبر عن انتمائها، فهي من خلال عمليات التسوق بين القنوات والبرامج بمختلف مرجعياتها وإيديولوجياتها وأشكال الاستهلاك التي تتعرض لها يمكنها أن تقرر هويتها الدينية وأن تعطي معنى تفاوضيا لخلق استراتيجيات هووية تمكنها من التمايز والتميز في محيطها الاجتماعي، وما ذلك إلا تأكيد على أن " أغلبية الأفراد في المجتمعات المعاصرة لم يعد لهم أبدا معنى ثابتا ومستقرا للهوية، فهوياتهم تميل إلى التشظي والتجزئة على الدوام"(هرلمبس، 2010، 14)

وما دام الفرد محدد بتنشئته الاجتماعية ضمن مجموعته الثقافية "فالسيرورات الأولية لعملية إدماج الفرد في الثقافة، تؤدي إلى استبطان النماذج الثقافية التي تفرض عليه بصورة كاملة بما يؤدي إلى تكيفه الاجتماعي الضامن لاكتسابه هوية ثقافية موروثة هي بدورها تضمن الحفاظ على الثقافة ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، بحيث تتحول الهوية بسهولة إلى مماثلة تعمل بنمط سكوني محدد مسبقا" (كوش، 2007، 149-150) في ظل هذا

المشهد تصرح المبحوثة رقم 02 أيضا قائلة "الدين في عايلاتنا التقليدية المحافظة يمشي روحه، الدين نورثوه بالفطرة من أمهاتنا وأجدادنا، ولكن اليوم كاين مستجدات في حياتنا ماعاشوهمش والدينا وماعندناش عليهم معرفة، على هاذيك نتبعوا المشايخة الكبار باش نسدوا الفراغ الثقافي والمعرفي لي عندنا" يمكن القول أن هؤلاء النسوة يعشن حالة تناقض وتعدد لجملة الأنساق القيمية الحداثية المستنبطة من أبجديات الخطاب الديني المتلفز ومعانيه مع أنساق القيم التقليدية، فلاهي ملتزمة بما اقتبسته وتعلمته جراء متابعاتها المتكررة للخطاب الديني ولا هي تستطيع التخلي عن ماضيها الديني والاجتماعي وأفكارها وأسلوب حياتها، إنها بذلك تعيش تعددا في المرجعيات (الدينية، العرفية، الثقافية، الاجتماعية...).

وبالحديث عن المرجعيات الدينية، فإننا نلاحظ بأن معرفة الانتماء المذهبي المالكي (نسبة إلى مالك بن أنس) تمثل بالنسبة للنسوة المستجوبات إحدى أهم المؤشرات الخاصة بالثقافة الدينية لديها، من حيث أننا لمسنا ضعفا وهشاشة بهذه المعرفة، إذ أن غالبية المستجوبات (ما عدا المبحوثات 01، و02، و03 و07) لم يستطعن التعرف على المذهب الفقهي المتبع في الجزائر ولا بقية المذاهب المتعارف عليها لتكتفي وفقط بذكر المرجعية الدينية الإسلامية كما حصل مع المبحوثة رقم 02، وهو ما يجعلنا نقول أن المرأة تعيش نوعا من الضعف والفقر في المعرفة الدينية بخصوص مسألة الانتماء للمذهب المالكي حتى وإن كانت ذات مستوى ثقافي عالي (جامعي)، لكن في مقابل ذلك تؤكد المبحوثة رقم 03 في إشارتها لأحد أهم أقطاب الفكر الديني المالكي المعاصرين محليا قائلة " أتابع موسى إسماعيل عنده عدة مؤلفات في الفقه المالكي، وهو خبير في الفقه المالكي، ويدير دراسات مقارنة...وهو مفتي القناة الخامسة مع الدكتور بوزيدي" إن المستوى التعليمي العالي للمرأة وكذا حلقات تحفيظ القرآن في المساجد تلعب دورا مهما في معرفة المرجعية الدينية الفقهية التي تنتمي إليها يمكننا القول إذن أن المرأة من خلال متابعتها للخطاب الديني المتلفز تكون أكثر حرية واطلاعا على مختلف الفتاوى والمسائل الدينية التي تؤسس لتشكيل ثقافتها الدينية، حتى وإن كانت هذه المادة بعيدة وخارجة عن المذهب المالكي المعتمد في الجزائر، هذه الحرية في متابعة البرامج والخطابات الدينية المتلفزة المتعددة المرجعيات إنما تنتج تعتيما وضبابية لدى المرأة، حيث " تخلق ارتباكا أثناء الولوج إلى وجهات نظر متمايزة بين رجال الدين، حول قضايا يعايشونها في واقعهم اليومي، والتي (وجهات النظر) تتسم كلها بالقداسة حسبهم" (خيتر، 2018، 385)، ليتم بذلك انتقاء المرجعيات الدينية بما يتلاءم ويتماشى مع مختلف وضعيات التعامل مع المقدس، وهو ما يمثل غذاء على السريع يُمَكِّن المرأة بصفتها متلقية من بناء نموذج ثقافي متنوع ومتعدد في آن واحد. وهذا ما يدفعنا للقول أن تمثل المرأة للخطاب الديني المتلفز الذي يمثل حقلا يشمل مواقع وأدوار محددة يحتلها الفاعلون (مؤسسات أو فئات) يحدد كيفية توزيع رأس المال الذي يأخذ أشكالا متنوعة (رأسمال ديني، ثقافي، اجتماعي، رمزي...) والذي يمثل سلطة تؤدي وظيفة إضفاء معنى ما، لتصبح العلاقات المنتجة بين الخطاب الديني والمرأة بصفتها متلقية لهذا الخطاب، وبين المرأة المتلقية ومحيطها الاجتماعي بصفتها وسيطا بين الخطاب والجمهور غير المتابع له، وأيضا بين الخطاب والسياق الثقافي الذي تعيش في كنفه هاته الأخيرة كلعبة تنظمها قواعد وانتظامات وتجاذبات (المنافسة، الصراع....) بين الفاعلين، وذلك في إطار المحافظة على وضع الموقع ووضع الحقل أو خلق تغيير فيه، لذا فالخطاب الديني المُتلفز باعتباره فاعلا في الحقل الديني الإعلامي لا يمكنه انتزاع المشروعية والإنتاج بشكل فعال إلا من خلال منظومة الإدراك والاستعدادات والتصورات المكتسبة والتي يطلق عليها بورديو P.Bourdieu

بـ "الهابيتوس" "Habitus "* والتي تكتسبه المرأة ليصبح بذلك كـ" القواعد المولدة للممارسات" والتي تتمثل في رأسمالها الخاص من المعتقدات والخبرات والمهارات التي تمكنها من التعايش والاندراج في الحقل، مولدة بذلك استراتيجيات للتماهي توجه سلوكياتها أو تجعلها تتخذ مواقف متميزة دون غيرها، أو استثمار الثقافة الدينية المكتسبة ضمن رهانات وجودية تحددها مسبقا.

بإستراتيجية التماهي هاته تتمكن المرأة من معرفة نظام الحقل الذي تعيش في كنفه وتنتمي إليه، وغذاءها الثقافي الذي تحتاجه ومعايير الممارسة فيه، ليكون بذلك "الهابيتوس" أشبه بالعلاقة الفارقة التي تتشكل منها هويتها وثقافتها في ظل الممارسة الخطابية المتلقاة.

أما بخصوص مؤشر حفظ النصوص الدينية (القرآن الكريم) وقراءة أذكار الصباح والمساء، نشير إلى أن المرأة تختار بل وتفضل قراءة وحفظ سور قرآنية دون غيرها يوميا خاصة قبل النوم وخلال يوم الجمعة، حيث تشير المبحوثة رقم 10 قائلة "ما كنتش نعرف نقرا ونكتب، بصح الجامع والتلفزيون خلاوني تعلمت أهم حاجة لي هي نرفد المصحف ونقراه، الحمد لله، الحمد لله لي ربي وفقني وحفظت سورة البقرة والكهف والرحمن، وكل ليلة قبل ما نرقد نقراها...". إن في هذا القول لمعاني دلالية قوية تشير إلى أن المرأة اليوم أصبحت تدرك أهمية وقيمة اكتساب الثقافة الدينية التي تتجسد من خلال قراءة وحفظ القرآن الكريم كونه الوحيد الذي يشفع للمؤمن يوم القيامة ويوم الحساب، هذا وينبغي الإشارة إلى أن المرأة الجزائرية كلما تقدمت في السن كلما كانت حريصة على الاكتساب المكثف لجملة المعارف الدينية التي تقربها من الله عز وجل وتزيد من فرصها للدخول للجنة، ولهذا فهي دائما تلجأ إلى متابعة الخطاب الديني وتحرص على استيعاب المادة الدينية سواء كان ذلك في المسجد من خلال دروس محو الأمية وحلقات تحفيظ القرآن، وأيضا متابعة الحصص والبرامج الدينية وبرامج الفتوى في التلفزيون الجزائري وعبر مختلف البرامج الخطابية في الفضائيات العربية. وعلى عكس ذلك تماما تشير المبحوثة رقم 11 قائلة "صراحة بلا ما نكذب عليك أنا ما نتفرجش البرامج الدينية عن قصد، بمعنى نتفرجها مع والديا هوما لي يديرو القناة والحصص لي فيها مسائل الدين....وبخصوص قراءة وحفظ القرآن ألتزم بما حفظته سابقا في المدرسة وأقرأ القرآن من المصحف خلال شهر رمضان فقط وبصفة متقطعة" إن هذا التصريح يحيلنا إلى القول أن هذه الحالة التمثيلية تشبه إلى حد كبير حالات مماثلة في سنها، فهي لا تحفظ السور القرآنية من المصحف إلا ما تعلمته من المؤسسات التنشيئية التي مرت عبرها خاصة المدرسة، وبالتالي فهي لا تولي اهتماما لاكتساب الثقافة الدينية من الخطاب الديني المتلفز، أما ما يتعلق بقراءة القرآن خلال شهر رمضان، فإن هذه الممارسة مرتبطة بتوجيه الفكر والسلوك نحو الأفضل مخافة انتهاك حرمة الشهر الفضيل وعدم استغلال أيامه في الطاعات والعبادات.

إن المرأة الشابة لا تهتم برفع ثقافتها الدينية ولا تسعى من تلقاء نفسها إلى متابعة البرامج والخطابات الدينية وحصص الفتوى من أجل التشبع بالتعاليم الدينية، في مقابل الاكتفاء بما تقدمه المؤسسات التنشيئية في المراحل

* عرفه في كتابه (Le sens pratique) قائلا "إن الاشتراطات المشتركة لطبقة معينة من خلال ظروف حياتية تنتج سموت(Les habitus) كأنسقة من الاستعدادات الدائمة والقابلة للتحويل وكبنيات منتظمة (Les structures structurées) قابلة لكي تعمل كبنيات ناظمة (Structures structurantes)" (Bourdieu, 1980 , 88) أي كمبادئ مولدة ومنظمة للممارسات والتمثلات، قادرة على التكيف موضوعيا بأهدافها دون وعي مفترض مسبقا ودون التحكم في العمليات الضرورية لتحقيق تلك الأهداف. كل هذا ينتظم موضوعيا وبطريقة منتظمة بعيدا على أن يكون ذلك نتيجة الخضوع لقواعد ما، أو لفعل ما منتظم ناتج عن مصدر ما.

العمرية الأولى (الأسرة، المدرسة، المسجد...) والتي تجسدت في دروس التربية الخلقية والتربية الإسلامية، وبذلك فهي أكثر عرضة لمظاهر العلمنة في ثقافتها وسلوكياتها (حفظ الأغاني، الاتصال بالانترنت طيلة الوقت ومتابعة آخر صيحات الموضة والجمال ومشاهدة الأفلام والدراما التركية والسورية...). فيا ترى لم لا نلمس هذا الجهد في مسألة تكثيف المرأة الشابة لاكتساب ثقافة دينية تمكنها من تعلم أمور دينها ودنياها رغم ارتفاع المستوى التعليمي للمرأة المعاصرة؟ ألهذا العزوف ارتباط بالخطاب الديني المتلفز في حد ذاته؟ أم هنالك مبررات أخرى ؟

2.5 القيم الدينية للمرأة: نحو إستراتيجية التفاوض

يؤكد إريكسون Erikson أن إحساس الفرد بالهوية ينطوي بالضرورة على تبنيه تصورا ما عن ذاته بوصفه كائنا أخلاقيا وخاصة مع تنامي قدرته على التفكير التجريدي الذي يتسم بالمرونة والموضوعية إضافة إلى تغير التوقعات والمطالب الاجتماعية. والقيم كما يرى ماكس فيبر Max weber تعبر عن أسلوب في الحياة لدى الفرد أو الجماعة لها طابع مثالي تعطي للموجودات وطرائق الحياة صفة المرغوب فيه والمستحسن، وهي بذلك جزء تجريدي يدعوا الأفراد للانخراط فيه واحترامه وجزء مادي مجسد يظهر في الأشياء وطرائق الحياة التي تعبر عنها (Rocher,1982 , 56) ، ما يجعلها "مشاعر قوية مؤسسة للمشروعية، فهي أعراض وانفعالات تصدر عن مجال مختلف تماما عن الحسابات العقلانية التي تعطي مشروعية للسلوكيات على اعتبار أن ما نقوم به حسن " (Kuty, 2005, 12-13) أما زيور zyor (1980) فيرى أنها ترفع من اعتبار الذات وتمنح الاطمئنان والشعور بالرضا عن الذات، وبذلك يمكن القول أن القيم بهذا الشكل إنما تشتغل لتكون بمثابة المنظم الداخلي في حياة الأفراد.

وتتجلى أهمية القيم الدينية في تنظيم الأفراد من حيث تنسيق سلوكياتهم اليومية باعتبارها مؤشرا حيويا يخدم النظام الاجتماعي ويساعد على استقرار الحياة الاجتماعية. وبالتالي فإنها تعمل على ضبط السلوك الديني للأفراد وتوجيه أفعالهم في الحياة اليومية، معبرة بذلك عن الغايات والأهداف التي يطمح الأفراد التحلي بها وممارستها (الدافع للفعل) للحصول على الأجر والثواب والمفازة بالجنة.

ترتبط القيم الدينية ارتباطا وثيقا بالمعايير الوجدانية والفكرية والاعتقادية التي يتبناها الأفراد،خاصة وأنهم يعبرون بذلك عن تصرفاتهم وأقوالهم وحتى سلوكياتهم المستمدة أساسا من القرآن والسنة، لتكون من أقوى الضوابط الاجتماعية التي تلزمهم بالتحلي بالقيم والأخلاق كمرجعية أساسية لأفعالهم وممارساتهم.

ويؤكد الخطاب الديني على مسألة القيم بمختلف تصنيفاتها –الشخصية، الدينية، الاجتماعية والثقافية–، إذ يشير الشيخ محمد غورماز قائلا "المعلومات الدينية وظيفتها أنها تجمعنا وتوحدنا"، وهو ما تؤكده المبحوثة رقم 03 قائلة " الخطاب الديني يدعم القيم، إذ يركز الخطيب دوما على الوحدة وعلى التعاون بدليل نجاح حصص التعاون والتضامن اللي دايما يجيبوا ويحضّروا رجل الدين فيها"يبدوا أن الخطاب الديني يأخذ على عاتقه مسؤولية الالتزام العميق بمنظومة القيم الضرورية التي تتيح عيشا سلسا وسعادة وطمأنينة لدى الجمهور المتلقي لهذا الخطاب، باعتبار أن القيم الدينية تمثل محورا مركزيا في حياة المؤمنين، إذ كثيرا ما تندمج الرموز الدينية والطقسية لتتغلغل في تفاصيل الحياة المادية والروحية والثقافية للمجتمعات. وفي ذات السياق شدد دوركايم Durkheim على أهمية القيم الدينية وما يرتبط بها من شعائر احتفالية في تعزيز التضامن والتماسك بين أفراد الجماعات البشرية، كما سلط الضوء على أهمية الأفكار والتصورات النظرية في دور الممارسات الشعائرية في

حشد مشاعر الناس في جوانب الحياة النفسية، الاجتماعية، الدينية، والسياسية. وبذلك يمكن النظر إلى القيم الدينية بوصفها نظاما للتعاون والتماسك الاجتماعي، ومجموعة من المواقف والمعتقدات، ومنظومة فكرية تتضمن قواعد وممارسات أخلاقية.

لذلك ومن خلال البحث عن أهمية القيم الدينية الإسلامية لدى المرأة من خلال تلقيها للخطاب الديني المُتلفز الذي يحرص على تلقينها جرعات متفاوتة من أمور الدين والدنيا المتعلقة بالعبادات والمعاملات، سنحاول وذلك انطلاقا من عدة مؤشرات فرضتها الحالات التمثيلية عينة الدراسة معرفة أقصى حد ممكن لهذه الأبعاد التي سوف نوجزها في قيم: الصدق، الأمانة، الاحترام، قيم العمل .

1.2.5 الصدق:

لابد أن نشير إلى أن الصدق يعبر عن "قول الحق ومطابقة الكلام للواقع وهو سمة دينية وخلقية " (بن باهي، 2017، 82)، إذ يتضمن الخطاب في تناوله لقيمة الصدق الحديث عن الكذب كونه صفة/ سمة مكروهة وممقوتة، تشير المبحوثة رقم 12 في هذا الصدد قائلة" أنا صادقة مع نفسي ومع ربي...والباقي ما يهمنيش...." لتصرح لاحقا " الواحد يكذب يكذب، من ذاك كذبة بيضاء، قاع الناس تكذب وتنوفق إلا من رحم ربك، الكذب راه عادي في وقتنا" إن هذا القول يؤشر على اضمحلال قيمة الصدق في أيامنا هاته وانتشار الكذب بدلا عنه، والصدق مراتب، فهناك الصدق مع الله ثم الصدق مع الذات (النفس) ويليه الصدق مع الناس. وليس الصدق قيمة دينية محضة، بل قيمة أخلاقية واجتماعية في نفس الوقت كونها تعبر عن حالة من التربية والآداب التي تتحلى بها المرأة المؤمنة، وأحد أهم معايير السلوك بحيث تعتبر محددا، وناظما، وضابطا لسلوكها الديني والاجتماعي ضمن تفاعلاتها مع الآخرين.

ينبغي الإشارة إلا أن هذه الحالة التمثيلية بالرغم من محاولاتها الحثيثة في إظهار درجة صدقها للظهور بصورة حسنة أمام الآخر التي تنفي اهتمامها به، إلا أنها لم تتوانى في السقوط أمام الأسئلة التي أعيدت صياغتها لتتناول بذلك مسألة الكذب في الحياة اليومية. وغالبا ما تقع المرأة أسيرة موقف يجعلها تتملص من قول الحقيقة، خاصة إذا كان الموقف مرتبط بمسألة الثقة، أو تفاديا لحصول مشكل عائلي ينجر عنه فك رابطة الزواج، أو مخافة فقدان شخص عزيز...وغيرها من المواقف التي تتحجج بها المرأة لتشرعن بذلك كذبتها وعدم صدقها، تقول المبحوثة رقم 04 " كذبت على زوجي سابقا، بصّح الله غالب .....الظروف لي كانت خلاتني كذبت.....ربي أدرى بما في القلوب " يحيل بنا ذلك إلى القول أن المرأة في هاته الحالات إنما تتخذ لنفسها إستراتيجية دفاعية تارة وتفاوضية تارة أخرى للتعبير عن قيمة الصدق لديها، لتكون هاته الإستراتيجية مرهونة بالموقف الذي تمر به وبطبيعة الفاعلين حولها.

2.2.5 الأمانة:

الأمانة قيمة دينية إسلامية وهي تعبير عن المحبة والسعادة والخير، وهي من بين "أخص الفضائل التي يترتب عليها صيانة الأموال والأعراض وحفظ المجتمع من غوائل الفوضى والفساد... والإنسان مطالب بالأمانة في كل لحظة أو لفتة، وفي كل إشارة أو عبارة، وفي كل حركة أو سكون " (زايد، 2017، 213)، وكل إنسان يؤتمن على رزقه وعمله وعلاقاته، وقد نجد أن الملك أو الرئيس يؤتمن على شعبه، كما ويعتبر الدين أمانة لدى العلماء والخطباء بحيث يسعى دوما هؤلاء العلماء والخطباء والمشايخة على تلقين الناس الالتزام بالطاعات

والتحلي بالأخلاق الحسنة والنهي عن ارتكاب الفواحش والمعاصي...ويتحسر الخطاب الديني المتلفز من انتشار ظاهرة الغش التي أصبحت أمرا عاديا في الممارسات اليومية للفاعلين الاجتماعيين، وقد شملت الغش في الامتحانات والغش في الميزان والغش في البناء والغش في التعليم وغيرها من القضايا الثقافية والاجتماعية التي تؤشر على وضع أخلاقي متأزم غابت فيه المسؤولية والحفاظ على الأمانة والالتزام بإتقان العمل...وغيرها من القيم المرتبطة بقيمتي الأمانة والغش. وفي مسألة الحفاظ على الأمانات صرحت المبحوثة رقم 03 قائلة " يلزم نكون قدوة في الصدق وفي حفظ الأمانة والمحافظة على ديني وأصلي وشرفي " إن هذه المبحوثة تدرك مسبقا أهمية الالتزام بجملة المعايير الدينية والمبادئ التي تنظم وتضبط ممارساتها اليومية كونها قد تلقت تنشئة دينية تولي اهتماما كبيرا للمبادئ والثوابت التي غرست في شخصيتها وتترجم في أفكارها وتصوراتها وسلوكياتها الدينية، وتصريحها يوحي إلى درجة كبيرة من الوعي الديني، خاصة وأنها أولت أهمية كبرى لمسألة الحفاظ على الأمانة من خلال الحفاظ على دينها وأصلها وشرفها، وهذا يحيلنا إلى القول بأن قيمة الأمانة لا ترتبط بأمانة الودائع فحسب، وإنما تشمل جميع الأمانات بدءا بأمانة الصدق وحمل الدين ونشره، وأمانة التعامل مع الآخر من خلال حفظ حقوقهم، وأمانة الحفاظ على الشرف (حفظ الفرج)، وأمانة نصح المسلمين، وأمانة تربية الأبناء تربية صالحة بالإضافة إلى الحفاظ على حرمات الجماعة....

إن الأمانة بهذه المعاني وهذه الإحالات توحي إلى كونها قيمة اجتماعية وسلوك رمزي يتمظهر في عديد من الاتجاهات والمواقف والوضعيات، إنها "قيمة أخلاقية تنبثق من قوة الضمير والالتزام بالقول والفعل كسمة جوهرية في التعامل مع الناس" (بن باهي، 2017، 86) وهذه القيم المكتسبة من البيئة الاجتماعية التي تربت في كنفها هاته الحالة قد تمنح المرأة المؤمنة مكانة دينية واجتماعية متمايزة في عائلتها وضمن محيطها الاجتماعي والمهني . إن هذه الوضعية توضح عمليتي الذهاب والإياب بين جملة القيم الدينية والأخلاقية المكتسبة عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية وبين القيم الدينية المستنبطة من الخطاب الديني المتلفز، لتوفق وتتموقع بين العمليتين ضمن إستراتيجية تفاوضية تختار منها ما يسد النقص القيمي الذي تتبناه في بناء شخصيتها (ذاتها) وما تتفاعل به مع محيطها .

3.2.5 الاحترام والتواصل مع الآخرين:

يعدد الخطاب مظاهر التواصل مع الآخرين ضمن أولويات تبدأ بالوالدين، فالزوج/ الزوجة، الأقارب، الجيران....ويحتل الوالدان صدارة الخطاب نظرا للمكانة الرفيعة التي يحتلانها، خاصة وأن الاحترام والتراحم وحسن المعاملة ذكرت على الوالدين، وقد تضمن القرآن الكريم آيات كثيرة وتضمنت السنة أحاديثا صحيحة خصصت لاحترام الوالدين ورعايتهما. كما يؤكد الخطيب في بعض المواضع الخطابية على أهمية تربية الأبناء تربية سليمة تتأسس على القيم الأخلاقية السامية خاصة عندما يتعلق الأمر بقيم احترام الوالدان ورعايتهما.

من جهة المستجوبات تتمظهر قيمة الاحترام في علاقة المرأة بوالديها فتقول في ذلك المبحوثة رقم 08 " تربينا على الخوف والطاعة والاحترام، الحمد لله الوالدين ربي يطول في عمرهم مقدرتهم ومحترمتهم وقيمتهم عالية عالية وحتى ولادنا رانا نربوا فيهم على هذا الطريق، وكاش ما قصرنا ربي يغفرنا من الوالدين، مهما نديروا ما نعوضوش واش داروا " معنى ذلك أن جيل الآباء قد ربوا أبناءهم تربية صارمة تتبنى على الخوف والطاعة وفرض قيمة الاحترام في ممارسات أبنائهم سواء كان ذلك في البيت أو خارجه في التعامل مع الجيران ومع

المعلمين ...وهو ما نتج عنه جيل يدرك أهمية الاحترام كقيمة جوهرية في تصوراته وممارساته، كما أن هذا الجيل يحاول إعادة إنتاج نفس النمط القيمي لجيل الأبناء للسير على نفس خطى أبائهم ضمانا لاستمرار الرأسمال القيمي الذي أصبح اليوم يعيش حالة تلاشي وحالة ذوبان خاصة مع سياسة الانفتاح على ثقافات الشعوب التي فرضتها الوسائل التكنولوجية الحديثة والتي على رأسها التلفزيون والأنترنت. أما المبحوثة رقم 05 فقد صرحت قائلة "عندما أحترم جاري، وعندما لا أؤذيه، وعندما أقدر جاري... راني نعبد في ربي" يبدو أن هذه المبحوثة بالرغم من مستواها الثقافي المحدود إلا أنها استطاعت أن تتخذ من الخطاب التلفزيوني الذي تتلقاه بشكل دوري ومستمر ركيزة أساسية تتبني عليها جملة معتقداتها وأفكارها القيمية التي تحدد أن مسألة الاحترام وحسن التواصل ما هي إلا طريقة من طرق عبادة الله.

4.2.5 قيم العمل:

أصبحت مسألة الجد في العمل ظاهرة مفقودة في حياتنا خاصة مع مظاهر الهزل وعدم الجد في الحياة انطلاقا من قول المبحوثة رقم 04 " خدمتنا مافيهاش التعب، ...عندي بيرويا وميكرويا مرات نكوناكتي (الفيسبوك) ومرات نلعب، باش نكتل le vide ، ومع الأزمة هاذي (كوفيد 19) نروح خطرة ولا زوج في السمانة،...المدير معاونا بزاف " تشبه هاته الحالة التمثيلية العديد من النسوة العاملات (خاصة ممن لهن مهام ثانوية أو مختصات في الإعلام الآلي ويمتلكن أجهزة مزودة بشبكة الأنترنت) التي تفضلن الأعمال الهينة والبسيطة والغير المتعبة والجالبة للسعادة والراحة بعدم محاسبة مسؤول العمل لهن ولمردودهن، ولعل هذا الحال يشبه إلى حد كبير رغبات الشباب اليوم في امتهانهم مهن مريحة ومربحة في نفس الوقت، وهي وضعية تعبر عن مظاهر اللامسؤولية الأخلاقية اتجاه العمل والمهن واتجاه طلب العلم أيضا، حتى في وقت الأزمات التي يصاحبها نوع من الخوف والارتباك الذي يخلق نوع من الصحوة الذاتية بضرورة التكفير عن الذنوب والاسترزاق بالمال الحلال ويوجه جملة التمثلات والتصورات القيمية نحو ممارسات واعية وهادفة.

أما ما يتعلق بأهمية إتقان العمل، فإننا نلاحظ باستمرار في حياتنا المهنية اليومية ومن خلال تعاملاتنا مع مختلف الإدارات أننا نعيش نوعا من النفاق والرياء المهني، ربما يرى القارئ أننا نتحامل على العاملات والمهنيات، ولكن ملاحظاتنا السوسيولوجية اليومية وواقع معيشنا المهني اليومي يثبت ذلك لأن الكثير منهن يتقن العمل أثناء وقوف مسؤول العمل على رؤوسهن أو أمام أعين الناس، لتتساهلن فيه أثناء غياب المسؤول وحيث لا يراهن الناس الأمر الذي ينبئ بغياب أو موت الضمير المهني.

كما يأتي الحديث عن إتقان العمل عند الحديث عن التوكل، تصرح المبحوثة رقم 10 في هذا الصدد " دايما نطلب من ولدي يتوكل على ربي ويروح يسعى ويسترزق،.... نعلمه ديما يتكل على ربي وعلى روحه مايتكلش على الناس" والتوكل بهذا المعنى يشير إلى بذل الإنسان قصارى جهده في العمل الذي يوكل إليه/ يكلف به، ليفوض النتيجة إلى الله. لتؤكد أيضا المبحوثة رقم 03 " عملي أولى، ما نسرقش من عملي لأني مدفوعة الأجر" وهو دليل على وعي ديني بأهمية قيم العمل، ودليل على الرغبة الجامحة في كسب المال الحلال وعدم الوقوع في ملذات الدنيا بتبني القيم السلبية التي تعود بالمضرة على المؤمنين.

3.5 مظاهر السلوك الديني لدى المرأة:

في محاولة فهمنا وتحليلنا للسلوك الديني الذي تتمثله وتمارسه المرأة الجزائرية جراء متابعاتها للخطاب الديني المتلفز، لابد لنا أن نكون أكثر حذرا وأشد حيطة في التعاطي معه، خاصة وأن المستجوبات لا تعبرن عن حقيقة مشاعرهن وسلوكاتهن – خاصة إذا كانت تخالف مبادئ الشريعة الإسلامية والحس العام المشترك– وهو ما يؤدي إلى إضفاء طابع "المرغوبية الاجتماعية" على مجموعة من المواقف والسلوكات واتجاهات القيم. هذا يحيلنا بطبيعة الحال إلى القول أن حالة "التفاوض الاستراتيجي" التي تتخذها المرأة وتتبناها في سلوكها الديني ليست وليدة البناء الشخصي (الشخصية الفردية) فحسب، بل هي وليدة النسق الاجتماعي (المجتمع) الذي يتأرجح على وقع التوتر الحاصل بين المعايير المرجعية (خاصة الدينية منها) وبقية الأنساق الاجتماعية، لـ"يقوم بتبرير مجموعة من السلوكات، ويضفي عليها قبولا اجتماعيا، وإن كانت غير مقبولة منطقيا كما شرح ذلك "إيكلمان"" (جرموني، 2016، 40)، خاصة وأن بعض سلوكياتها تتحكم فيها الأعراف والمعتقدات السائدة في المجتمع والتي تؤثر بقصد أو بدون قصد في وعيها، ومن ثم يتم تفسير إستراتيجية التفاوض هاته من خلال طبيعة ونوعية الثقافة السائدة في المجتمع.

قصد توضيح ذلك، سنتناول بعض الطقوس الدينية التي تمارسها المرأة الجزائرية والتي تأثرت بالخطاب التلفزيوني باعتبارها ممارسات طقسية ذات أهمية بالغة في تحيين المعتقدات القداسية والمحافظة عليها، إنها على حد تعبير غيرتز Geertz ذات "أهمية كبرى داخل النسق الديني، فهي التي تجسد بالأساس عملية الدمج التي تقوم بها الرموز المقدسة بين النظرة إلى الكون ونظام القيم"(منديب، 2006، 56)، حيث أن هاته الطقوس تعمل على إعادة صياغة الإيمان بشكل مستمر حسب طبيعتها ووضعياتها سواء كانت يومية كالصلاة، البسملة والحمدلة ....، ظرفية والتي تتجسد في طقسية صلاة الجنائز، صلاة الاستسقاء (وهي ممارسات دينية ذكورية بامتياز....أو موسمية مثل الصيام والحج...).

1.3.5 البسملة والحمدلة:

يعتبر فعلي النطق بالبسملة والحمدلة عنوان الهوية الدينية للمرأة المسلمة، حيث تستهل وتختتم معظم سلوكياتها وأنشطتها اليومية والموسمية والظرفية بذكر الله، فالبسملة قول تستبق إليه عند النهوض والنوم، والنهوض والجلوس، والخروج والدخول، والأكل والشرب وكذا القيام بكل عمل، وهو سلوك ديني حرص الخطاب الديني على تأكيده لا لغاية سوى التوكل على الله وطلب المعونة منه في سائر الأعمال. ونشير إلى أننا أثناء مباشرتنا لإجراء المقابلات الميدانية مع النسوة عينة الدراسة، فقد لاحظنا أن أغلبية المستجوبات تلفظن بالبسملة في بداية كل مقابلة، كما تخللت مضامين المقابلات عبارات الحمدلة والحوقلة وعند مساءلتنا لهن بخصوص ترديد هاته العبارات بشكل متكرر ومواضع قولها أجابت المبحوثة رقم 03 قائلة " في الأغلب نبدا أموري ببسم الله والسلام على رسول الله..نفتتح أموري كلها ببسم الله والسلام ...والحمد لله" لتشير أيضا المبحوثة رقم 10 " كلمة بسم الله ديما في فمي، نوض بيها ونستفتح بيها نهاري، ونقولها كي نطيب باه الماكلة تجي فيها البركة، وكي نتوضى ونصلي ...وكي نخرج باه ربي يسهل لنا أمورنا ويفتح لنا أبواب الرزق... والحمد لله ثاني كيما بسم الله، نقولها كي نكمل أي حاجة ....كبرت عليها وتربيت عليها وراني نأكد عليها مع بناتي وكنايني (زوجات الأبناء)"، إن تصريح هاته المبحوثة يتضمن العديد من المعاني التي يجب الوقوف عليها، خاصة وأن كلمة واحدة

لها من المعاني والدلالات ما يجعل الحياة تسير وتتغير نحو الأفضل، فهي تنير الدرب وتمنح البركة للمؤمنين بها كما سبق الذكر، باعتبار هذه الأخيرة (البركة الناجمة عن البسملة) حسب غيرتز بمثابة " الكهرباء الروحية" Spiritual electrecity" (Geertz 1971) التي تنير درب المؤمنين وتجسد القدرة الإلهية التي تتدخل باستمرار في تنسيق الأفعال والسلوكيات اليومية التي تكشف طبيعتها الدينية بشكل واضح. كما تعبر أيضا عن طلب قبول العبادات كالصلاة والعمل باعتباره عبادة كما صرحت كل من المبحوثة رقم 02 و03 في موضع سابق. ويعود الفضل في ذلك إلى نمط التنشئة الاجتماعية الأسرية وباقي المؤسسات التنشيئية التي تؤكد على ضرورة الالتزام ببعض المبادئ والسلوكيات والسعي لتثبيتها كثقافة دينية متأصلة.

إن التلفظ بعبارة " الحمد لله" توحي في دلالتها إلى " الاعتراف وعدم الاعتراض على المشيئة الإلهية.....فالحمد لله ترمز إلى ذلك الحضور الكلي والدائم للقدرة الإلهية داخل الحياة الاجتماعية " (منديب، 2006، 124- 125)، فالالتزام بقولها لدى المرأة المسلمة دليل على إيمانها وتمسكها بدينها والصبر على المواجع والآلام، ودليل أيضا على شكر الله على العطايا والمنن التي أحلها الله عز وجل على عباده المؤمنين، فهي غالبا ما ترافق كل مظاهر الفرح كالزواج والإنجاب والشفاء من الأمراض، كما تحضر في كل مظاهر الحزن من موت ومرض ...

2.3.5 الصلاة:

يعتبر طقس الصلاة أحد أهم مظاهر السلوك الديني الإلزامي اليومي الذي أُصِّل فيه في الخطاب القرآني وخطاب صحيحي بخاري ومسلم، إضافة إلى كونه ثاني أركان الإسلام، إلا أننا لمسنا تباينا في ممارسة هذا الطقس لدى المبحوثات عينة الدراسة، حيث تشير المبحوثة رقم 05 " ما كنتش نعرف نقرا وما كنتش حافظة القرآن...كنت نصلي –بالحمدُ (الفاتحة)– ونبّطل، الشيطان غواني... يجعل ربي يسمحلي، بصح هاذي عوام راني ثابتة على صلاتي وحفظت السور الصغيرة وتعلمت من حصص الدين تاعنا اللي نشوفها كل جمعة....وراني نَفَّلْ باش نعوض الصلاة لي فاتتني في صغري"، إن الصلاة وفق هذا التمثل نموذج إلـهي في السلوك وفريضة لازمة على المسلمين، كما أن عدم الالتزام بها يعتبر تقصيرا في العلاقة مع الله وعبادته واستسلاما لغواية الشيطان. وقصد فهم الأسباب التي تحول دون ممارسة طقس الصلاة والالتزام بممارستها دون تردد أو انقطاع، يمكن تفسير ذلك بعدم حفظ السور القرآنية التي يتم قراءتها أثناء الصلاة وبعدم معرفة ما يقال في التشهد...، وكذا نظام النظافة المقترن بممارسة الصلاة خاصة بالنسبة للمرأة، إضافة إلى وضعيات الجسد التي تحددها " من قيام وقعود، وركوع وسجود، وتستخدم فيه أعضاء الجسم من رأس ويدين وعينين..الخ" (موس، 2017، 12) لتصبح بذلك فعل وعقيدة تمارسها المرأة وتسعى لتثبيتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها كلما تقدمت في السن، وهو ما جرى تأكيده من طرف لامبير Y.Lambert حيث أفاد أن الفئات الشابة " تعتبر الأقل ممارسة للصلاة والأقل انتظاما فيها، ليزداد التمسك والممارسة مع التقدم في السن" (Lambert 2000) ، لتتأكد أيضا النتيجة لدى فريق بحث الإسلام اليومي (محمد العيادي، حسن رشيق، محمد طوزي) بحيث توصلوا إلى أنه " كلما اقترب الموت، كلما أصبحنا أكثر ممارسة" (Elayadi , Rachik, Tozy, 2006, 109) للطقوس والشعائر الدينية، وهي نتيجة تدعمها دراسات سوسيولوجية عربية وغربية مثل دراسات رشيد جرموني والعيادي والطوزي وغيرهم.

3.3.5 الصوم:

يعتبر الصوم طقس ديني وممارسة للتعاليم الدينية، وهو الركن الرابع من أركان الإسلام، وتحض ممارسة هذا الطقس بأهمية خاصة في النظام الثقافي الإسلامي بشكل عام، حيث نجد من المسلمين من لا يؤدون الصلاة ولكنهم يصومون شهر رمضان، ما يعني أن شعيرة الصيام ذات منزلة تتغذى من الديني والثقافي الأنتروبولوجي والاقتصادي معا، بحيث يصبح شهر الدين والتدين وممارسة العادات والتقاليد بغض النظر عن تصريحات رجال وعلماء الدين الذين ينزعجون وينتقدون هيمنة العادات الاحتفالية التي تؤثر على البعد الروحي للصيام.

يرمز الصوم "إلى قدرة الإنسان على التحكم في طبيعة حياته وضبطها وفقا لقواعد السلوك التي فرضها الله على عباده،إذ أن قدرة الإنسان في السير على النهج الإلهي تؤكد أنه غير متعلق بشهواته ليعيش في هذا العالم المدنس الذي تطبعه الفوضى العامة" (منديب، 2006، 138)، بهذا المعنى يصبح شهر رمضان مخبرا لقياس الحس الديني لدى المسلمين سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين. كما ينبغي الإشارة في هذا الصدد أن شهر رمضان يعمل من جهة كمحفز على ممارسة الصلوات اليومية والالتزام بأدائها في أوقاتها المحددة وصلاة التراويح سواء كان ذلك بالنسبة للأشخاص الذين يمارسون صلاة متقطعة أو أولئك الذين لم يسبق لهم الصلاة، ومن جهة أخرى يلزمهم القيام بقراءة القرآن والالتزام بلباس معين طيلة الشهر، إنه بذلك يخلق نوعا من الحماس الديني لدى المسلمين.

ويعتبر الصيام بالنسبة لمبحوثاتنا الشعيرة الأكثر كثافة بالمقارنة مع باقي الفرائض الدينية الأخرى، حيث أشارت المبحوثة رقم 09 قائلة "راني مريضة بكل علة، بصح عمري ما فرطت في صيام رمضان،..... والطبيب قالي ماتصوميش" يبدو أن هذه الحالة بالرغم من مرضها وكبر سنها، وبالرغم من الترخيص الشرعي الواضح والصريح الذي يعفيها من أداء هذه الفريضة الدينية إلا أنها لا تتوانى في صيام الشهر الفضيل، ذلك أن القيام بهذه الشعيرة يعتبر وسيلة تتميز بها أمام نظيراتها –من نفس سنها– اللواتي يتحججن بمنع الطبيب صومهن وعدم قدرتهن على صيامه، كما أنها تظهر لمحيطها الاجتماعي قدرتها على التحكم في نفسها مبعدة بذلك نظرة الشفقة عليها. في حين تشير المبحوثة رقم 10 قائلة " سمعت المفتي يقول كلما ذاقت بيك الدنيا بمشاكلها وهمومها، توجه إلى الله بالصلاة والذكر والصيام باش تكون قريب ليه يسمعك ويعينك باش تتجاوز المحنة"، يبدوا أن هذه الحالة المقاربة قد تمثلت خطاب الشيخ المفتي التي شاهدته وجسدته خير تجسيد في سلوكها الديني بحيث أصبحت تلجأ إلى التقرب من الله والتضرع إليه والإكثار من الدعاء كلما تعرضت لضيق نفسي ومشاكل اجتماعية في محيطها عن طريق صومها شهري رجب وشعبان ورمضان على التوالي ليفصل بين شهري شعبان ورمضان أسبوع فقط تفطره، لتتجلى بذلك صورة المناجاة والبحث عن الخلاص من المشاكل التي تعيشها، كما أنها لا تستغني عن صيام يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع إضافة إلى صيام "الأيام البيض" بالمفهوم العامي والتي يعنى بها صوم أيام 13، 14، 15 من كل شهر هجري.

ما يمكن قوله في هذا السياق هو أن المرأة لا تكتفي بصيام شهر رمضان فقط كونها تلقته عن طريق التنشئة الاجتماعية ليصبح بذلك عادة تمارسها كل سنة، بل تلجأ أيضا لصيام أيام وشهور لتناجي الله عز وجل طمعا في إيجاد مخرج لمعضلاتها ومشاكلها من جهة والحصول على الثواب والتقرب من الله عز وجل من جهة أخرى، والتي تمثلتها واستوعبتها من خلال تلقيها للخطاب الديني المتلفز المحلي /والكوني على السواء

6- خطاب الفضائيات الدينية والهوية : قراءة في آليات الهيمنة

لقد خصص الداعية المصري عمرو خالد بصفته شخصية دينية إعلامية بارزة العديد من البرامج التلفزيونية عبر قنوات مختلفة كبرنامج صُنّاع الحياة /وعلى خطى الحبيب في قناة اقرأ، وصدق رسول الله ضمن قناة الرسالة، ولمحات إنسانية /والإيمان والعصر ضمن قناة المحور، والسيرة حياة في قناة الرأي...وغيرها من البرامج الدعوية الدينية التي كان لها تأثيرا كبيرا على المتلقين خاصة على فئة الشباب التي يحاول معها وبكل ما أوتي من تجربة ومعارف أن يوليها اهتماما كبيرا ويخاطبها عبر مشاركاته المُتلفزة من أجل العمل على تنمية سلوكياتهم وتلبية احتياجاتهم، أما من حيث مواضيع برامجه المختلفة فهي تحمل تسميات مختلفة عن باقي البرامج الدينية المشابهة لها والتي تبث في مختلف القنوات الفضائية علما أنها تتميز بالراهنية وبمدلولاتها العملية البارزة، وكمثال على ذلك نشير إلى برنامج صُنّاع الحياة الذي لاقى نجاحا كبيرا في الساحة الإعلامية حيث يدل . من حيث اختيار تسميته . على صناعة الفرد وتهيئة نفسه لربه، بمعنى أن التأسيس لفتح الأذهان وتفعيل دلالة المسؤولية ورفع مستوى الأخلاق الذاتية والاجتماعية ضمن شبكة التواصل والمثاقفة معا هي من الأفعال المحورية التي تؤدي إلى التغيير.

إن هذا الوجه من الحرية واتساع رقعة الاطلاع على المعارف الدينية عبر القنوات أمام تعدد المرجعيات الدينية قد ينتج عنه تعتيما وضبابية للمتلقي،وإن ذلك يبدو وكأنه نوعا من الإرباك الذاتي لبعض القضايا اليومية المعاشة المتسمة بهالة من التقديس، وقد يجد هؤلاء الذين يكونون في موقع انتقائي لمختلف المرجعيات المتعددة بما يتماشى ومصالحهم (البرغماتية في التعامل مع المقدس) أنفسهم في وضعية تستدعي التعامل معها برجاحة عقل متزنة.

خاصة وأن تغلغل المضامين الخطابية الدينية في الحياة الاجتماعية اليومية للفاعلين، قد خلقت وفق رؤية بودريار عالما متكونا من اختلاط أنماط السلوك الديني من جهة وكذا أشكال الصورة الإعلامية من جهة أخرى، كما حاول فيبر أن يوضح "كيف يمكن للسلوك الديني أن يوجه بقية النشاطات الإنسانية والاقتصادية والسياسية والقانونية وفق تعاليم وتشريعات معينة وكيف يمكن لهذا التوجه أن يحدد سلوكا أخلاقيا يطبق بدوره في الشؤون الدنيوية" (عماد، 2017، 88) وهو ما يؤكد عليه أيضا هيجل باعتبار "أن الأفكار والمعتقدات السائدة كبنية فوقية هي التي تحدد السلوك الإنساني" (عماد، 2017، 81) وهي القاعدة العملية التي تقوم بترسيخ مضامين دينية معينة غالبا ما نجدها داخل الرسائل المتوجهة إلى المتلقين والتي تساهم في إعادة تشكيل هويتهم الدينية، والتأثير فيها بشكل قابل للملاحظة وبدرجة كبيرة للغاية، وذلك من خلال قيم متعددة المرجعيات، مما يتيح أمامهم كمؤمنين إمكانية الاختيار والانتقاء الطوعي لبعض المبادئ البارزة من بين هذه النماذج الدينية المتعددة، وهو ما لم يكن مقبولا ولا معمولا به في مراحل سابقة من تاريخ المجتمعات الإسلامية.

يجب علينا أن لا نغفل أن عملية استخدام أو توظيف الخطاب الديني المتلفز والتي تتم بشكل مكثف خلال الأزمات، تشكل لنا دائما ذلك الدور المحوري الذي يعمل في انسجام مستمر مع الأحداث على تسيير هاته الأزمات، كما أن ذلك يعد نوعا من الاستدعاء للتنفيذ من أجل الاحتماء بنماذجه في التحديات التي تخلق وتحدد نوعا من التوازن للذات الفاعلة والذات الاجتماعية، ويمثل لنا ذلك كباحثين ما تعنيه لنا تلك الطاقة الهائلة التي تقوم بشحن الحقل الثقافي/ الديني، وتتخذ منها القوى/ أو الأنظمة السياسية السائدة (مؤسسات الدولة) شرعيتها

بطريقة راشدة خاصة وأنها تتبناها تحقيقا وإثباتا لهيمنتها، كما يمكن لجهات أخرى من النظام استعمال هذه الطاقة للتحريض وإثارة السخط على النظام القائم (المعارض).

إن جملة التحولات الجديدة التي شهدها العالم خلال السنوات القليلة الماضية ما هي إلا تعبير ودلالة ضمنية كامنة عن انفراد ما يسمى بـ "الإيديولوجية الناعمة" * التي تراهن الفضائيات الدينية ومن ورائها السلطة السياسية والاقتصادية التي تقف على كل ذلك من خلال ممارستها للعنف الرمزي ضمن أطر التعبئة الجماهيرية وفق جرعات متفاوتة "تتغلغل وتنساب إلى عقول المشاهدين ....بهدوء وبلا ضجيج على عكس ما كان يتم في السابق" (بورديو، 2004، 24) وفق تقنيات وآليات خفية متميزة تقوم في غالب الأحيان بعملية استعراض حب الذات من جهة وبالحفاظ على النظام الرمزي المؤطر لوجودها من جهة أخرى (ويمكننا أن نذكر هنا على سبيل المثال بعض القنوات الشيعية كقناة الأنوار والكوثر، والسلفية كقنوات المجد والناس والأثر التي تحاول جاهدة من خلال رأسمالها الديني على استقطاب أكبر عدد ممكن من المشاهدين وذلك من خلال استخدام آلية العنف الرمزي وأساليب الهيمنة) لأجل أن يصبح الخطاب الديني المتلفز عملية توجيه تؤطر وترسخ الانخراط وتؤسس الولوج في الحياة الإعلامية التي تصنع الثقافة الدينية والتي يمكن أن تندرج كذلك في الوجود الاجتماعي والسياسي للتلاعب بالعقول.

إن سبل إنتاج الثقافة الدينية التي يكتسبها الأفراد سواء من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، أو من خلال ما تم تجديده وإعادة تمثله وممارسته عبر التلقي المجحف للخطاب الديني المتلفز الذي يعمل في نفس السياق على إعادة هيكلة واستساغة الموروث الديني بشقيه المحلي والعالمي للجمهور المتلقي وبشتى طرق التأثير كاعتماده إثارة العنف الرمزي الذي تمارسه القنوات عبر مختلف برامجها، نظرا لأنه خطاب يمكنه أن يسمع ويشاهد عبر الإلقاء والمتابعة الحية، فإنه وكيفما كان نوعه خصوصيا أو شموليا فإنه يشهد تجانسا وتشابها في الموضوعات التي يقترحها للنقاش والمحاورة والإفتاء، مع احتمال أن يتميز إيديولوجيا في أحيان أخرى ومن خلال المرجعيات الدينية المتبناة وأيضا من خلال استراتيجيات التقديم والأداء وعصرنة الوسائل المستعملة والبث التلفزي، لا لشيء إلا لتسجل التميز ولأجل أن تحافظ هذه القناة على سمعتها وصدارتها في عرض المشهد الديني مقارنة بالقنوات الأخرى (كقناة الرسالة أو قناة اقرأ حسب الأوديمات** المسجلة) "إن هذا النوع من لعبة المرايا العاكسة التي تمارس من كل جانب يحدث تأثيرا هائلا من الانعزال والانغلاق العقلي" (بورديو، 2004، 58) الناتج عن آلية الانتشار الدائري للمعلومات والمعارف الدينية التي تؤثر على درجة قبول أو رفض المتلقي لنمط هذا الخطاب ما دام أن السوق الاستهلاكية لهذا النوع من الفكر هي دائما متشابهة، ويكون هنا المرجع هو كيفية اختيار مختلف التوجهات التوحيدية على المستوى العالمي أو الإقليمي حسب تقنيات ومهارة العرض المقدمة التي يجب إيلاءها ثقة منقطعة النظير لإنتاجها الفكري أو الدوغمائي المتلفز على حساب السوق الدينية المحلية إن وجدت، لتشكل بذلك غذاء ثقافيا وروحيا على أكبر قدر من السرعة الممكنة والتي من شأنها أن تمس التكوين

* الإيديولوجيا الناعمة Soft idéologie إنها تلك الجرعات اليومية بل اللحظية التي تبثها وسائل الإعلام الحديثة وكذلك مختلف الوسائط المتعددة عبر شبكة الانترنت.

** الأوديمات Audimat تعني قياس نسبة الإقبال على مشاهدة برنامج معين.

العقلي للأفراد وتغير من طرق رؤيتهم وتفكيرهم للموضوعات والقضايا الاجتماعية العامة التي تحيط بهم، وهذا ضمن تنوع ثقافي مشرعن يسعى إلى تدجين العقول وتعبئتها وقولبتها وفق المقاس الذي حبك مسبقا في سيناريوهات البرامج والخطابات الدينية. وربما تهدف هذه المساعي في محاولاتها الحثيثة إلى إنتاج التنميط الفكري والتأثير السياسي لأجل الوصول إلى صناعات ثقافية دنيئة وإلى ترسيخ العنف الرمزي الذي يتجول وينتقل من قناة إلى قناة عبر البرامج التي تدسّ الإيديولوجيات وتحولها إلى عنف مادي.

يمكننا القول إجمالا أن الخطاب الديني المتلفز يمثل نسقا كاملا يعمل على مد المؤمنين بثقافة دينية متكاملة وأيا كان نوعها وتوجهها فإنها تتعلق بالفكر العقدي/ والطقوسي وبجملة القيم الضرورية التي يحتاجونها لتسيير شؤون حياتهم، وفي نفس الوقت يمثل عنصرا فاعلا وقدرة ديناميكية داخل نسق شامل يتمثل في الاجتماع المدني للدولة بمختلف أبعاده السياسية والوطنية والقومية والإنسانية.

إن محاولة ربط هاتين الفكرتين بطرق اشتغال الخطاب الديني المتلفز تمكننا ربما من فهم " المجال الحقلي" لكل منهما في إطار عملية إدراك حركة الثقافة الدينية وديناميتها. بمعنى أن الفكرة الأولى تحيلنا إلى فهم واستيعاب الخطاب الديني المتلفز وفق دلالات معرفية دينية، في حين تتجه الفكرة الثانية إلى أن اعتماد وتبني هذا الخطاب وفهمه سيكون وفق تحليل سوسيو . ثقافي لمختلف تجلياته وتمظهراته في البنية الاجتماعية السائدة. إن جل المساعي الإعلامية المشار إليها آنفا تهدف إلى الاستثمار الإيديولوجي في الخطاب المتلفز الذي يعمل على بناء الثقافة الدينية وحركيتها، ومن ثم فإن الأفعال والسلوكيات الناتجة عنها ترنو نحو الاستجابة الحتمية لكل ذلك، وكمحصلة عامة يحيلنا هذا الأمر إلى تشكيل وبناء هوية دينية أو إعادة بنائها وتجديدها وفق أفق حداثي يؤكد على الانفتاح على الآخر ويدفعنا خاصة إلى المحافظة على الإرث الثقافي والتحلي بخصوصياته في نفس الوقت.

إن جملة الآليات الموظفة تعمل باستمرار على تعرية التوجه الاجتماعي العام للدين، ويرنو بشكل تدريجي نحو الهيمنة على المجتمعات والأفراد باسم الإله، كما أنه يتجه إلى حمايتنا من اللاهوتية الدينية القادمة من كل صوب، ولأنه في حمايته هاته لنا يقوم بعملية التصدي لكبار كهنة التواصل الشامل والتي تسعى المؤسسات الإعلامية وعلى رأسها التلفزيون إلى استغلالها بما يخدم أغراض ومنافع الجماعات السياسية أو الدينية الضاغطة، لذلك نرى أن الإعلام في توجهاته الديماغوجية أصبح يعري بالتعبير عن كل ذلك وعن الواقع الذي يسهم في خلقه عن طريق البرامج التي يسطرها لبلوغ أهدافه، حيث يبثها كيفما حتم عليه المنطق ذلك وبالطريقة التي يراها مناسبة، ويتأرجح الفرد المتابع لهذه الخطب مع كل هذه الخلفيات بين دفتين إعلاميتين أو إيديولوجيتين مختلفتين،حيث تنادي الأولى بحريته في تدبير شأنه الديني، وتدعوه الثانية لعولمة طاغية تعرض عليه مشروعا دينيا شاملا ومختلفا في نفس الوقت من حيث المعتقدات والممارسات والقيم والانتماءات والهويات.

7- الخلاصة:

يشكل التلفزيون ملتقى إيديولوجيات دينية لقوى اجتماعية تروج لخطابها المعبر عن تطلعاتها العقدية والسياسية التي تراهن على الخطاب الديني المتلفز بوصفه أداة ووسيلة تنشيئية مهمة تضفي المشروعية على طموحاتها في التغيير وتحقيق المشروع الاجتماعي الحداثي البديل، في إطار ترسيخ مكانة مركزية له ضمن خطة هيكلة الحقل الديني ، من حيث السعي إلى خلق نمط حداثي من التدين (شكلا ومضمونا) وقطع الطريق

على كل الخطابات والنماذج التي تشذ عن الإطار المذهبي والعقدي المرسوم للبلاد، والذي يضمن استمرارية النظام السياسي والاجتماعي من خلال الأمن الروحي والديني للفاعلين الاجتماعيين الذي يعني تحصين المواطنين والمواطنات ضد أنماط التدين والإفتاء المناوئة للنظام أو كما يسميه الآخرون بـ" الخوارج الجدد".

إننا وبأي حال من الأحوال لا يمكننا حصر وظيفة التلفزيون بصفة عامة والخطاب الديني المُتلفز على وجه الخصوص في الإعلام والإخبار لأن هذا الخطاب هو بقدر ما أصبح يؤثر في التمثلات والممارسات الدينية اليومية للأفراد ومختلف علاقاتهم الاجتماعية، فهو عموما والموسطة التلفزيونية للدين على وجه التحديد التي نجد أنها لم تساهم وفقط في تغيير العلاقة بالديني فحسب بل تنجم عنها جملة من التغيرات الإستيراتيجية في حياة الإنسان عموما. وباعتبار الدين تشريعا وإيمانا وعبادة فهو يساهم كذلك وفي جميع الأحوال إلى إعادة بعث هذا كمجال أو كفضاء اجتماعي بامتياز (ضمن ما يسمى بالفضاء الديني العام)، وفي نفس الوقت فإن هذه الموسطة خلقت معالم جديدة في التدين تنادي وتندد بالفردانية وبالشخصنة إن جاز لنا تبني هذا المصطلح (خاصة وأننا نجده أكثر تحديدا) وهنا يجب أن نميز أنه إذا لم يعد للدين ذلك الملمح الجماعي جراء الميولات البراغماتية القاتلة، فإنه أصبح شأنا فرديا بامتياز وبتمثلاته وممارساته لذلك إذا كان يتجلى كتميز فكري فهو يحتاج للتفسير والتوضيح أكثر فأكثر)، ضف إلى ذلك أنه أصبح غذاء ثقافيا سريعا تمت سلعنته بقياس مستوى الأوديمات، من حيث ترويجه وحساب نسب ربحه في ظل سوق دينية استهلاكية منافسة.

الإحالات والمراجع:

اليحياوي، يحيى(2016). الخطاب الديني في الفضائيات العربية: مقاربة من منظور الموسطة،ط1، المغرب: مؤمنون بلا حدود.

السباعي، خلود (2007). الجسد الأنثوي وهوية الجندر، ط1، الرباط: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.

السواح، فراس. (2002). دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني. ط 04. سوريا: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.

الشرفي، عبد المجيد (2014). مرجعيات الإسلام السياسي، ط1. تونس: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

بن باهي، صارة(2017). الهوية الدينية والهوية الثقافية: دراسة سوسيولوجية للعلاقة بين التدين الإسلامي والممارسات الثقافية لدى الشباب الجزائري – طلبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية نموذجا. أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع غير منشورة ، جامعة معسكر– الجزائر.

بورديو، بيار (2004). عن التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول،ترجمة وتقديم: الحلوجي، درويش، ط1. دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الاعلامية.

جرموني، رشيد (2016). مقترب منهجي لدراسة الظاهرة الدينية: حالة الشباب المغاربي نموذجا. مجلة إضافات، العدد 35 . بيروت: مركزدراسالت الوحدة العربية. ص– ص 24– 47.

خيتر، سعدية (2018). الهوية الدينية للشباب الجزائري بين المحلي والكوني: قراءة سوسيولوجية في التحولات الدينية، ضمن مؤلف جماعي : التحولات الاجتماعية والثقافية في الجزائر من منظور العلوم الاجتماعية، تنسيق: طيبي غماري، بركات عمر. سيدي بلعباس– الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر.

دلة، نورهان (2018). عبد الغني عماد: الهوية والمعرفة، المجتمع والدين: علم اجتماع المعرفة: الاتجاهات الجديدة والمقاربات العربية. مجلة إضافات، العددان 41- 42 بيروت: مركزدراسالت الوحدة العربية. ص- ص 311- 318.

سبيلا، محمد (2010). في تحولات المجتمع المغربي. ط1، المغرب: دار توبقال للنشر.

زايد، أحمد (2017). صوت الإمام: الخطاب الديني من السياق إلى التلقي، الطبعة 01. القاهرة: دار العين للنشر.

عماد، عبد الغني (2017). سوسيولوجيا الهوية: جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

كوش، دنيس(2007). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: منير سعيداني، مراجعة: الطاهر لبيب، سلسلة علوم انسانية واجتماعية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

مجاهدي، مصطفى. (2011). برامج التلفزيون الفضائي وتأثيرها في الجمهور: شباب مدينة وهران نموذجا. ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

منديب، عبد الغني (2006). الدين والمجتمع، دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب. المغرب: إفريقيا الشرق.

موس، مارسيل(2017). الصلاة " بحث في سوسيولوجيا الصلاة"، ترجمة وتحقيق وتعليق: سالم محمد الحاج، الطبعة 02. ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة.

وهولبورن، هارلمبس،(2010)، سوثيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع.

Bourdieu, Pierre (2000). Equisse d'une théorie de la pratique, précédé de trois études d'ethnologie Kabyle. Paris : Edition du Seuil.

Rocher Guy (1982). Introduction a la Sociologie Générale, L' Action Social. Canada : Edition HMH.

Kuty Olgierd (2005). La négociation des Valeurs : Introduction a la sociologie. Bruxelle : Edition de Boeck.

Elayadi Mohamed, Rachik Hassan, Tozy Mohaled (2006). L'Islam Au Quotidien : enquete sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc. Casablanca : Editions prologues.

Lambert, Yves (2000). Religion, Modernité, Ultramodernité. Archives de siences sociales des religions, n- 109, Janvier/ Mars.